■ الباب العاشر

الشيطان

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

لم يعرف شورتي معنى كلمة « بالتطابق».

بطريقة ما جمعت والدة شورتي العجوز ثمن تذكرة الحافلة من لانسنج إلى بوسطن . « أقرأ كتاب سفر الرؤيا وصل لله ، يا بني(» ذلك ما كانت تقوله دائما لشورتي وهي تزوره كما نصحتني أنا بذلك مرة أثناء انتظارنا إصدار الحكم علينا . قرأ شورتي كتاب سفر الرؤيا صفحة صفحة وجثى على ركبتيه مصليًّا مثلما يفعل شماس كنيسة معمداني زنجي .

وقفنا نتطلع إلى القاضي في محكمة مقاطعة ميدلسكس (يفترض أن الأربع عشرة جريمة المتهمين بها ارتكبت في تلك المقاطعة) وجلست والدة شورتي تبكي ورأسها ينحني ويرتفع وهي تصلي للمسيح بالقرب من إلا وريجنالد . نودي على شورتي أولا ليقف .

« التهمة الأولى ، ثماني إلى عشر سنوات .

« التهمة الثانية ، ثماني إلى عشر سنوات .

« التهمة الثالثة ، ..... »

وأخيراً : « كل العقوبات تنفذ بالتطابق ».

كان العرق يتصبب من وجهه الأسود بغزارة وكأنما مُسح بالزيت وبما أنه لم يكن يعرف معنى كلمة «بالتطابق » فقد أحصى في رأسه أن عقوبته تفوق المائة عام سجناً . بكى بصوت عال وبدأ يترنح وكاد أن يسقط على الأرض مما اضطر الحاجب لأن يمسكه ويسنده .

على مدى ثماني إلى عشرة ثواني تحول شورتي إلى ملحد مثلي

حكم عليَّ أنا بعشرة سنوات سجناً .

أما الفتاتان فقد حكم عليهما بست إلى خمس سنوات في إصلاحية النساء في فرامنجهام بولاية ماساتشوستس .

كان ذلك في فبراير ١٩٤٦ ولم يكن عمري قد بلغ الواحد وعشرين عاماً بعد . إنني حتى لم أصل مرحلة حلق اللحية حينها . أخذوني أنا وشورتي وأيدينا مقيدة إلى سجن المقاطعة في مدينة شارلستاون .

لا أستطيع تذكر رقمي في السجن وذلك يبدو غريباً حتى بعد اثنى عشر عاماً من خروجي من السجن . رقمك في السجن يصبح جزءاً منك فأنت لا تسمع اسمك أبداً فقط رقماً وتجد ذلك الرقم مطبوعاً على كل قطعة من ملابسك وكل ما يخصك لدرجة أنه أصبح مطبوعاً في ذهنك .

أي شخص يدعي أن له عطفاً عميقاً على البشر الآخرين عليه أن يفكر طويلاً قبل أن يوافق على وضع الآخرين خلف القضبان – في قفص . لا أعني أنه يجب ألا تكون هنالك سجون ، فقط يجب ألا تكون هنالك قضبان ، فخلف القضبان لا يمكن أن ينصلح إنسان. لن ينسى السجين ذلك أبداً ولن تمحي القضبان من ذاكرته وعندما يخرج يحاول ذهنيًّا نسيان تلك التجربة ولكنه لا يستطيع . لقد تحدثت مع عدد كبير من السجناء السابقين ووجدت أنهم نسوا كثيراً من تفاصيل سنواتهم في السجن ولكنهم في جميع الحالات لم ينسوا القضبان .

كسمكة (الاسم الذي يطلق على النزلاء الجدد في السجن) في سجن شارلستاون ، كنت يائساً جسدياً وعدوانياً مثل الأفعى وذلك لحرماني الفجائي من المخدرات . كذلك لم تكن في الزنازين مياه جارية إذ أن السجن بني في عام ١٨٠٥ في أيام نابليون حتى إنه صمم على نسق سجن الباستيل . في تلك الزنزانة الضيقة القذرة كنت إذا رقدت على حصيرتي أستطيع لمس الحائطين .

أما المرحاض فقد كان سطلاً مغطى ومهما كنت قوي الإرادة فلن يمكنك تحمل رائحة صف من الزنازين المتغوطة .

استجوبني طبيب السجن فناديته بكل اسم قبيح جرى على لساني ، أما قسيس السجن فناديته بأقذع من ذلك . وأول خطاب وصلني فيما أذكر ، كان من أخي فلبرت أخبرني فيه أن كنيسة « قداسته » ستصلي من أجلي . رددت له بخطاب أخجل من ذكره اليوم . كذلك كانت إلا أول من زارني وما زلت أذكر كيف انقبض وجهها فجأة ثم تمالكت نفسها وابتسمت وهي تراني أرتدي لباس السجن الباهت الخشن وعليه رقمي مطبوعاً . لم يجد أي منا ما يقوله للأخر حتى تمنيت لو أنها لم تحضر إطلاقاً . أما الحراس فكانوا يراقبوننا نحن الخمسين ما بين نزيل

وزائر وقد سمعت كثيراً من المساجين الجدد يقسمون وهم في زنازينهم أن أول ما سيفعلون عند إطلاق سراحهم هو تأديب هؤلاء الحراس الذين يدخلون الغرف . كانت الكراهية دائماً منصبة عليهم .

انسطلت أول مرة من جوزة الطيب . كان زميلي في الزنزانة واحداً من بين مائة مدمن على الأقل لجوزة الطيب الذين كانوا يشترون من عمال المطبخ ملء علبة ثقاب من جوزة الطيب مسروقة مقابل نقد أو سكائر . أمسكت بعلبة من جوزة الطيب وكأنما هي رطل من المخدرات الثقيلة . مزج ما مقداره ملء علبة ثقاب في كوب ماء بارد له نفس مفعول ثلاث أو أربع لفائف . عندما وصلتني بعض النقود من إلا بعد ذلك تمكنت من شراء أنواع أجود من عند حراس السجن . تحصلت منهم على لفائف قنب ونمبوتال وبنزدرين . تهريب الأشياء المختلفة وبيعها للسجناء كان النشاط الجانبي للحراس وكل سجين يعلم أن حراس السجن يكسبون جزءاً كبيراً من عيشهم بتلك الطريقة .

قضيت بالسجن ما مجموعه سبع سنوات والآن حينما أحاول أن أفرق بين السنتين وبضع السنة الأوائل أجد أنها ليست إلا ذكريات جوزة الطيب وشبه المخدرات الأخرى . سب للحراس وقذف لحاجياتي خارج الزنزانة ، تحد أو شغب في الطابور ، رمي لصينيتي في غرفة الطعام ، رفض الإجابة عند مناداة رقمي مدعيًا أنني نسيت وأشياء من ذلك النوع .

كنت أفضل الوحدة التي جلبها علىّ ذلك السلوك وفيها كنت أذرع المكان «جيئة وذهاباً» كنمر محبوس أسب وألعن بصوت عال وبفظاظة ، وهدفي المفضل هو الإنجيل والرب . إلا أنه كان هنالك حد قانوني لأقصى وقت يمكن أن يقضيه النزيل في الحبس الانفرادي . في النهاية بدأ زملائي المساجين ينادونني « بالشيطان » نسبة لعدائي للدين .

أول شخص رأيته في السجن وترك نوعاً من الانطباع الإيجابي في نفسي هو نزيل يدعى « بمبي.» قابلته في عام ١٩٤٧ في سجن شارلستاون وكان زنجياً ذا لون فاتح ويميل إلى الاحمرار مثلي وقامته في طول قامتي كما أنه به نمشاً في الوجه . كان بمبي لصًا قديماً ومرتاد سجون . في سجن شارلستاون كان يدير الماكينة التي تطبع الأرقام في ورشة صنع لوحات السيارات حيث تعمل مجموعتنا وكنت أنا أعمل في السير الناقل حيث تدهن اللوحات.

بمبي كان أول سجين أعرفه لا يستجيب للغة الخنافس مثل « ماذا تعرف يا دادي ؟ » كثيراً ما كنا نجلس بعد انتهاء حصتنا من عمل اللوحات ونحن حوالي خمسة عشر

شخصاً ونستمع إلى بمبي . عادة لا يفكر السجناء البيض في الإنصات إلى سجين زنجي يدلي بآرائه في المواضيع المختلفة ، أما في حالة بمبي فكان السجناء البيض وحتى الحراس يقتربون ويسترقون السمع لما كان يقوله بمبي الذي كان يأسرنا بحديثه فنستمع كأننا مثبتين على مقاعدنا بينما يتحدث هو عن مواضيع غريبة لا يفكر فيها الإنسان عادة . كان يقنعنا وهو يغرف من علم السلوك الإنساني ، أن الفرق الوحيد بيننا وبين من هم خارج السجن هو أننا قبض علينا . كذلك كان يحب التحدث عن الحوادث التاريخية والأرقام .

وعندما يتحدث عن تاريخ سجن كونكورد ، الذي سأنقل إليه مستقبلاً ، لظننت أن غرفة كونكورد التجارية استأجرته لذلك الغرض كما أنني لم أكن أول نزيل يسمع بثوريو قبل أن يسترسل بمبي في الحديث عنه . كان بمبي معروفاً بأنه أحسن زبون للمكتبة . أما أكثر ما بهرني في بمبي فهو أنه كان أول رجل رأيته في حياتي يستحوذ على احترام الناس التام .... بكلماته .

نادراً ما تحدث بمبي معي ومع أنه كان فظاً مع الآخرين لكنه شعرت أنه يستلطفني . أما ما جعلني أسعى إلى صداقته فهو حديثه عن الدين . كنت أعتبر نفسي أكثر من مجرد ملحد ، كنت الشيطان نفسه ، إلا أن بمبي وضع فلسفة الإلحاد في إطارها الصحيح مما جعلني أتوقف عن هجومي الفظ على الدين . بدت طريقتي ضحلة مقارنة بطريقته كما أنه لم يكن يستعمل ألفاظاً بذيئة .

بدون مناسبة تُذكر أخبرني بمبي ذات يوم بصراحته المعهودة أن لي شيئاً من العقل لو شئت استعماله . كنت أسعى إلى صداقته وليس إلى نصيحة من ذلك النوع وكنت سأسبه لولا ألا أحد يسب بمبي . نصحني بالاستفادة من دروس المراسلة التي تنظمها إدارة السجن ومن مكتبة السجن .

منذ أن أكملت الصف الثامن في مدينة ميسون في ولاية ميشجان لم أفكر بدراسة أي شيء ليست له علاقة بالنصب والاحتيال كما أن حياة الشوارع محت من ذهني كل ما تعلمته في المدرسة . لم أكن أدري ما الفرق بين الاسم والفعل . وعندما لم تستطع هلدا قراءة البطاقات البريدية المصورة التي أرسلتها إليها حينما كنت أبيع اللفافات ، كتبت تقترح عليَّ دراسة اللغة الإنجليزية والكتابة الأدبية . ولذا عندما وجدت لدي الوقت بدأت كورساً بالمراسلة في اللغة الإنجليزية كما أنني بدأت أؤشر بالقلم على عناوين الكتب التي تجذبني ولم يطلبها أحد من قائمة الكتب التي كانت تمرر علينا .

من خلال دروس وتمارين كورس المراسلة بدأت أسترجع بعض أبجديات قواعد اللغة تدريجيًا وصار بإمكاني كتابة خطاب مفهوم بعد سنة من ذلك . كما تأثرت

بحديث بمبي عن أصل الكلمات وبدأت كورساً آخر بالمراسلة عن اللغة اللاتينية هذه المرة .

وتحت رعاية بمبي أيضاً بدأت لنفسي عدة عمليات مراهنة في مربع الزنازين الصغير. كنت أفوز على الجميع في لعبة الدومينو وأكسب علبة سكائر مقابل كل فوز وأصبحت لدي عدة خراطيش منها في زنزانتي والسكائر من الأشياء القيمة في السجن وتستعمل للتبادل كالنقود – كنت أراهن بالسكائر عمن يفوز في الملاكمة أو في مباراة رياضية ما . ولن أنسى أبداً الضجة التي أحدثها دخول جاكي روبنسون الميدان للعب مع بروكلين دودجرز في ذلك اليوم من إبريل ١٩٤٧ . ألتصقت أذني بالمذياع يومها وصرت كذلك في كل مرة يشترك فيها باللعب وعند نهاية المباراة أكون قد حسبت المتوسط الجديد لضرباته في كل المباريات .

في أحد أيام ١٩٤٨ وبعد أن نقلوني إلى سجن كونكورد ، كتب إليّ أخي فلبرت الذي كان دوماً بصدد الانضمام لهذه المنظمة أو تلك ، كتب يقول لي أنه اكتشف الديانة الطبيعية للرجل الأسود وأنه الآن أصبح عضواً فيما يسمى « أمة الإسلام » ونصحني بأن أدعو الله طالبا الخلاص . رددت على فلبرت بخطاب مع أن لغته كانت سليمة هذه المرة ، إلا أنه كان أسوأ من الذي كتبته له عندما أخبرني أن كنيسة « قداسته » تصلي من أجلي . بعد ذلك بمدة وصلني خطاب من ريجنالد ولم يخطر ببالي أبداً أن أربط بين الخطابين مع علمي بأن ريجنالد كان يقضي أوقاتاً طويلة مع ولفرد وهلدا وفلبرت في ديترويت . كان مكتوب ريجنالد مليئاً بالأخبار وفي نهايته هذه النصيحة : « مالكوم ، لا تأكل لحم الخنزير ولا تدخن سكائر بعد اليوم وسأريك كيف تخرج من السجن ».

كان رد فعلي الأول لذلك هو أن ريجنالد لا بد قد اكتشف طريقة يمكن أن أحتال بها على سلطات السجن . نمت وصحوت وأنا أفكر يا ترى أي نوع من الحيل يفكر فيه ريجنالد . ربما طريقة نفسانية مثل تمثيلي دور المجنون للجنة التجنيد العسكري في نيويورك . هل يمكنني مثلاً بعد الامتناع عن أكل لحم الخنزير وتدخين السكائر أن أدعي أن بي علة جسدية ما تحقق إطلاق سراحي . كانت جملته « تخرج من السجن » قد علقت بذهني وصارت ترن في مخيلتي . كم كنت أتحرق إلى الخروج من السجن ! وكنت أريد بشدة استشارة بمبي عن ذلك الموضوع إلا أن حاستي الغريزية منعتني من ذلك .

ترك التدخين لم يكن شيئاً صعباً بالنسبة لي فقد تعودت على البقاء بدون سكائر لأيام عديدة وأنا في الحبس الانفرادي ولن أدع هذه الفرصة تفوتني . بعد قراءة ذلك الخطاب أكملت علبة السكائر التي كنت بدأتها ولم أدخن سكارة

منذ ذلك اليوم في عام ١٩٤٨ وحتى اليوم .

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من ذلك التاريخ قدم لنا لحم الخنزير في وجبة الغذاء . لم أكن أفكر فيه حينما أخذت مقعدي من الطاولة الطويلة ، أجلس – أمسك – أبلع – قف – انتظم – أخرج . ذلك كان روتين الأكل في السجن . وعندما مر عليَّ طبق اللحم لم أكن أدري ما هو نوع اللحم المقدم وفي العادة لم نكن نميز بين الأنواع المختلفة – فجأة خطرت لي جملة « لا تأكل الخنزير بعد الآن » وكأنما هي مكتوبة على شاشة أمامي . ترددت والطبق ممدود إليَّ ثم مررته إلى الجالس منتظراً بجانبي بدون أن أتناول منه . بدأ يغرف لنفسه ثم توقف فجأة وهو ينظر إليَّ باستغراب .

قلت له : « إنني لا آكل لحم الخنزير » .

استمر الطبق في المرور على الآخرين .

ردة فعلهم والطريقة التي انتشر بها الخبر كانا من أطرف الأشياء ، فرتابة الأمور في السجن تجعل أي حادث ، مهما كان صغيراً ، يسبب جلبة كبيرة . عند المساء عرف كل النزلاء في الصف أن « الشيطان » لم يأكل لحم الخنزير .

جعلني ذلك فخوراً بطريقة غير عادية لأن الصورة العامة للزنجي كانت أنه لا يستطيع العيش بدون أكل لحم الخنزير . شعرت بالرضا عن نفسي لأن عدم أكل لحم الخنزير أذهل السجناء البيض . في مستقبل الأيام عندما ازدادت معرفتي واطلاعي على الإسلام أيقنت أنني برفضي أكل لحم الخنزير قمت بتنفيذ أول آيات الخضوع . شعرت بصدق المقولة التي يرددها المسلمون : « اقترب خطوة من الله وسيقترب منك خطوتين ».

تحول كل أخوتي وأخواتي في ديترويت إلى ما قيل لهم أنه « دين الرجل الأسود الطبيعي» الذي كتب لي فلبرت عنه وكلهم صلوا من أجلي ودعوا الله أن أتحول إلى الدين الجديد وأنا في السجن . ولكنهم بعد أن حدثهم فلبرت عن ردي الأول ناقشوا الأمر وقرروا أن أحسن حل هو أن يتصل بي ريجنالد الذي كان آخر من دخل الدين الجديد منهم وأقربهم إليَّ لأنه خبرني عندما كنا نحيا حياة الشوارع .

من الجانب الآخر كانت إللا أختي مجتهدة في موضوع نقلي إلى سجن مستعمرة نوفوك بولاية ماساتشوستس الذي كان يعتبر مركزاً تجريبياً للإصلاح . وكنت قد سمعت من أكثر من سجين في سجون مختلفة كيف أن من يملك النقود أو الواسطة بإمكانه أن ينقل إلى سجن نوفوك الذي وصفوه وكأنه جنة . بطريقة ما نجحت جهود إللا وتم نقلي إلى نوفوك وكان ذلك في أواخر عام ١٩٤٨ . وجدت أن السجن هنالك جنة فعلاً مقارناً بالذي كنت فيه – كانت به مراحيض بمياه جارية وليست به قضبان ، فقط حيطان وفيما بين الحيطان كنا نستمتع بقدر كبير من

الحرية . المستعمرة نفسها كانت في الريف حيث الهواء الطلق .

كان بالمستعمرة ٢٤ وحدة منزلية ويسكن في كل وحدة منها خمسون رجلاً على ما أذكر أي أن نزلاء المستعمرة كانوا ١٢٠٠ شخص . كان بكل منزل ثلاثة طوابق وأعظم ما في المستعمرة كان وجود غرفة منفصلة لكل نزيل . حوالي ١٥٪ من النزلاء كانوا زنوجاً وزعوا بحيث يوجد من ٥ إلى ٩ زنوج في كل منزل .

سجن مستعمرة نوفوك كان من أكثر أنواع السجون تقدماً فيما أعرف إذ أنه كان سجناً نموذجيًّا . بدلاً من جو النميمة القاسية والانحراف والرشوة والحراس المكروهين ، كانت هنالك « ثقافة » من النوع الذي يعرفه السجناء وكان عدد كبير من السجناء يميل إلى المواضيع الثقافية مثل النقاش الجماعي والمناظرة الأدبية . كما كان أساتذة ذلك البرنامج التعليمي يأتون من جامعة هارفارد وجامعة بوسطن والمؤسسات التعليمية المجاورة . كذلك كانت قوانين الزيارة متساهلة مقارنة بالسجون الأخرى وتكاد الزيارة أن تكون يومية ويسمح للزائر بقضاء ساعتين مع النزيل وللأخير حق اختيار أن يجلس مواجهاً ضيفه أو بجانبه أثناء الزيارة .

مكتبة السجن كانت واحدة من أجمل الأشياء فيه وقد أوصى بها للسجن مليونير يدعى باركهيرست إذ يبدو أنه كان لديه اهتمام بأمر إصلاح المجرمين . على الرفوف وضعت آلاف من كتبه وخلف الرفوف صناديق وحقائب ملأى بالكتب التي لم يعد لها مكان على الرفوف . كان بإمكاننا بعد الحصول على إذن أن ندخل المكتبة ونمشي بين الرفوف ونختار الكتب التي نريد . وجدت بالمكتبة مئات المجلدات القديمة وربما كان بعضها نادراً ومن بين كتبها كنت في البداية أقرأ بدون هدف أو توجه إلا أنني بعد ذلك تعلمت أن انتقي الكتب التي تلائمني .

لم أسمع من ريجنالد لمدة من الزمن بعد أن تحولت إلى نوفوك إلا أنني دخلت سجن تلك المستعمرة وأنا قد هجرت السكائر وتركت أكل لحم الخنزير وقد أثار ذلك دهشة البعض . بعد ذلك وصلني خطاب من ريجنالد يفيدني فيه بموعد زيارته لي وقد كنت متشوقاً جداً لتلك الزيارة لأسمع الخدعة التي ستخرجني من السجن . ريجنالد كان يدرك الطريقة التي أفكر بها ولذا كان لطريقته تأثير عليَّ .

في السابق كان ريجنالد يتأنق في هندامه إلا أنه عندما حضر للزيارة كان قد تهندم بعناية خاصة . زارني وأنا غير قادر على الانتظار حتى أعرف سر اللغز « لا سكائر ولا خنزير». بدلاً من ذلك بدأ ريجنالد يتحدث عن الأهل وعما يحدث في ديترويت وهارلم عندما كان هنالك آخر مرة . لم يكن من طبعي أن أستعجل الناس ليفضوا لي بما في ذهنهم قبل أن يكونوا مستعدين لذلك ولذا لم أسأله . إلا

أن الطريقة العفوية التي كان يتكلم بها جعلتني أتوقع أن شيئاً مهماً قد حدث .

أخيراً وكأنما هي خاطرة عنت له في تلك اللحظة ، قال ريجنالد : « مالكوم ، إذا كان هنالك رجل يعلم كل شيء ، من سيكون ذلك الرجل »؟

تلك كانت طريقته منذ أيام هارلم وهي أن يصل إلى ما يريد بطريقة غير مباشرة . كنت في الأغلب أتضايق من تلك الطريقة لأنني عادة أصل إلى ما أريد بطريقة مباشرة . نظرت إليه وأجبت : « حسناً ، يجب أن يكون إلهاً ».

هنالك رجل يعلم كل شيء .

ومن ذلك الرجل ؟

الإله رجل واسمه الحقيقي هو الله .

« الله ». تذكرت تلك الكلمة من خطاب فلبرت وتلك كانت أول إشارة لي للربط بين الاثنين . لكن ريجنالد استمر في الحديث وقال إن لله ثلاثمائة وستين درجة وأن تلك الدرجات تحتوي على كل المعرفة .

لو قلت : إنني ارتبكت فلن يصف ذلك التشويش الذي حدث لأفكاري ولست بحاجة لأن أذكركم بخلفيتي وطريقة تفكيري عندما كان ريجنالد يتفوه بمثل هذه الكلمات . لم أجادل واستمررت في الإنصات لعلمي أنه سيأخذ وقتاً قبل أن يصل إلى مرماه وتلك طبيعتي ، أن أترك الشخص يتكلم إلى أن يصل إلى مبتغاه .

« للشيطان ثلاثة وثلاثون درجة وتسمى الماسونية » ، هكذا استرسل ريجنالد في الحديث وما زلت أذكر كلماته بالحرف لأنني سأقوم بتدريسها للآخرين كثيراً في مستقبل الأيام . «والشيطان يستغل ماسونيته ليحكم العالم » أخبرني ريجنالد أن هذا الإله حضر إلى أمريكا وكشف نفسه لرجل يدعى إلايجا « رجل أسود مثلي ومثلك » وأوحى لألايجا أن عهد الشيطان في طريقه إلى الزوال . لم أدر بماذا أجيب فالتزمت بالصمت وواصلت الإنصات ؟!

الشيطان رجل أيضاً .

ماذا تعني بذلك ؟

بإيماءة خفيفة من رأسه أشار ريجنالد إلى بعض النزلاء البيض وزوارهم وهم يتحدثون مثلنا في الطرف الآخر من الغرفة .

هم . الرجل الأبيض هو الشيطان .

أخبرني أن كل البيض يعرفون أنهم أبالسة « خاصة الماسونيون» لن أنسى أبداً أنني فجأة تذكرت كل البيض الذين عرفتهم ولسبب ما وقفت عند صورة هايمي اليهودي الذي أحسن إلى وكان ريجنالد قد صحبني مرتين حينما كنا نذهب إلى

لونج آيلاند لشراء وتعبئة الخمور المهربة .

بدون أي استثناء ؟

بدون أي استثناء.

حتى هايمي ؟

ماذا لو تركتك تكسب خمسمائة دولار لتساعدني كي أكسب عشرة آلاف ؟

بعد ذهاب ريجنالد فكرت وفكرت وفكرت .

لم أدر الحقيقة من الوهم .

بدأت صور البيض الذين عرفتهم منذ بداية حياتي تمر في مخيلتي . ضباط الولاية البيض الذين كانوا يأتون إلى منزلنا بعد أن قتل بيض آخرون أبي .... الرجال البيض الذين كانوا يقولون عن أمي أنها مجنونة في حضورها وأمام إخواني وأخواتي إلى أن أخذها رجال بيض إلى مستشفى الأمراض العقلية ... ... القاضي الأبيض والآخرون معه الذين شتتوا أسرتنا ... ... آل سويرلن ... البيض الآخرون الذين عرفتهم في مدينة ميسون .... الصبيان البيض الذين تعرفت عليهم في المدرسة والمدرسون – من قال لي منهم وأنا لي في الصف الثامن أن أصبح نجاراً لأن التفكير في المحاماة سخف بالنسبة للزنجي .

غرقت في الوجوه البيضاء وهي تمر في مخيلتي . الوجوه التي في بوسطن في حفلات الرقص المخصصة للبيض فقط في قاعة روزلاند حيث كنت أمسح الأحذية ... وفي مطعم باركر حيث كنت أحمل أطباقهم القذرة إلى المطبخ .... طاقم عمال السكك الحديدية وركابها .... صوفيا ....

البيض في مدينة نيويورك – رجال الشرطة ، المجرمون البيض الذين تعاملت معهم .... البيض الذين يصطفون في الحانات غير المشروعة لتذوق الروح الزنجية ... ... النساء البيضاوات اللائي يجرين خلف الرجال الزنوج ... ... الرجال البيض الباحثون عن غرائب المتعة .

متلقي السلع المسروقة في بوسطن ووكيله متردد السجون .... رجال الشرطة في بوسطن .... صديق زوج صوفيا وزوج صوفيا الذي لم أره أبداً مع أنه عرف الكثير عني .... أخت صوفيا .... الجواهرجي اليهودي الذي شارك في نصب الشرك لي .... ضباط الرعاية الاجتماعية .... أناس محكمة مقاطعة ميدلكس ..... القاضي الذي حكم عليَّ بعشر سنوات سجناً .... السجناء الذين عرفتهم .... حراس السجن وضباطه ....

بين السجناء كان هنالك سجين مشهور في سجن نوفوك يدعى جون وكان جون هذا عجوزاً غنيًّا مشلولاً قتل إبنه الرضيع ، قتله «رحمة به » كما يقولون . كان دائماً فخوراً مدعياً ودائماً يقول إنه ماسوني من أصحاب الدرجة الثالثة والثلاثين

وأن للماسونيين نفوذاً وسطوة وأن أي رئيس أمريكي كان منهم وأن أي ماسوني في مأزق يستطيع الخروج منه بإعطاء الإشارة السرية لأي قاض أو ماسوني آخر في مركز نفوذ .

تذكرت كلام ريجنالد وقررت أن أجريه في جون هذا الذي كان يقوم بعمل خفيف في مدرسة السجن . ذهبت إليه وقلت :

كم عدد الدرجات في الدائرة يا جون ؟

ستون وثلاثمائة .

وكم عدد الدرجات في هذا ؟

قلت ذلك ورسمت مربعاً فقال : ستون وثلاثمائة . سألته إن كان ذلك أكبر عدد ممكن من الدرجات في أي شيء فرد بالإيجاب .

إذا كان الأمر كذلك فلماذا تقف معرفة الماسونيين في ثلاث وثلاثين درجة فقط ؟

لم يستطع جون أن يعطي إجابة شافية وبالنسبة إليَّ كانت الإجابة هي أن الماسونية ليست إلا ثلاثاً وثلاثين درجة من الإسلام الذي هو المعرفة الكاملة التي حُرم منها الماسونيون إلى الأبد وهم عالمون بوجوده .

عندما عاد ريجنالد لزيارتي مرة ثانية بعد أيام كان واضحاً له أثر حديثه عليَّ وسر بذلك أيما سرور . بعد ذلك تكلم لمدة ساعتين كاملتين حديثاً جاداً عن الرجل الأبيض الشرير وعن الرجل الأسود مغسول الدماغ .

غادرني ريجنالد وتركني أسبح لأول مرة في حياتي في أفكار جادة فحواها أن الرجل الأبيض بدأ يفقد سطوته ومقدرته على استغلال الشعوب الملونة ، وأن الشعوب الملونة بدأت تنهض بسرعة لتحكم مرة ثانية ، وأن عالم الرجل الأبيض في طريقه للانهيار .

« إنك لا تعرف حتى من أنت . إنك لا تعرف ، لأن الشرير الأبيض أخفى عنك ، أنت تأتي من سلالة جنس له حضارات قديمة وثروات وذهب وملوك . أنك حتى لا تعرف اسمك الحقيقي ولن تتعرف على لغتك الأصلية حتى إذا نطق بها شخص أمامك . لقد حجب عنك الشرير الأبيض كل معلومة عن أصلك . فأنت كنت وما زلت ضحية الشيطان الشرير الأبيض منذ أن قتل واغتصب واختطفك من وطنك وأنت بعد علقة في ظهر جدودك ».

بدأت أتلقى خطابين يومياً من إخوتي وأخواتي في ديترويت. كتب إليَّ ولفرد ، أخي الأكبر ، وزوجته وأم طفليه ، بيرثا (بعد وفاتها تعرف ولفرد على وتزوج روث ، زوجته الحالية) . كتب إلي كذلك فلبرت وأختي هلدا . أما ريجنالد فكان يزورني

إذ أنه بقى فترة في بوسطن قبل أن يعود إلى ديترويت إذ أنه كان آخرهم في دخول الديانة الجديدة . كانوا كلهم مسلمين وأتباع رجل وصفوه لي بأنه « صاحب الشرف إلايْجا محمد » الذي كان شخصاً دقيق الجسم مهذباً ويشيرون إليه أحياناً بأنه « مبعوث الله » . أخبروني أنه رجل أسود مثلنا ولد في مزرعة بولاية جورجيا في أمريكا ثم رحل مع عائلته إلى ديترويت حيث قابل شخصاً يدعى مستر والاس د. فارد الذي ادعى أنه الإله في شخص رجل . أعطى مستر والاس د. فارد إلى إلايجا محمد رسالته إلى السود الذين كانوا : « أمة الإسلام المفقودة التي وجدت نفسها في بيداء ومجاهل أمريكا الشمالية » .

دعوني كلهم لتقبل تعاليم « صاحب الشرف إلايْجا محمد » . وأوضح ريجنالد أن من يقبلون الإسلام دينا لا يأكلون لحم الخنزير وأن إتباع إلايْجا محمد لا يدخنون السكائر لأنهم لا يدعون مواداً ضارة مثل المخدرات والتبغ والكحول تدخل أجسادهم . مراراً وتكراراً ، قرأت وسمعت ، « أن مفتاح الإسلام هو الخضوع والتوجه إلى الله » وما أسموه« المعرفة الحقة عن الرجل الأسود» التي لدى اتباع صاحب الشرف إلايْجا محمد. كانت تصلني في خطاباتهم الطويلة التي تحوي مطبوعات أحياناً .

« المعرفة الحقة » باختصار هي أنه تم « تبييض» التاريخ في كتب التاريخ التي ينشرها الرجل الأبيض وأن مخ الرجل الأسود قد تم غسله لمئات السنين وأن الإنسان الأول كان أسود يعيش في أفريقيا التي خرجت منها البشرية على هذه البسيطة . لقد بنى الرجل الأسود ، الذي هو الإنسان الأول ، إمبراطوريات عظيمة وحضارات قديمة وثقافات في حين أن الرجل الأبيض كان ما زال يمشي على أربع ويسكن الكهوف . و« الشيطان الأبيض كان عبر التاريخ وبسبب روحه الشريرة ينهب ويقتل ويغتصب ويستغل كل جنس ليس أبيض » .

أما أكبر جريمة في التاريخ البشري فهي تجارة الرقيق عندما ذهب الشيطان الأبيض إلى أفريقيا وقتل واختطف ملايين السود رجالاً ونساءً وأطفالاً وأحضرهم إلى الغرب في سفن العبيد حيث ضربوا وعذبوا وعوملوا كالعبيد . . حجب عنهم الرجل الأبيض الشيطان أي معرفة عن أصلهم كما حجب عنهم معرفة لغتهم ودينهم وثقافتهم حتى أصبح الرجل الأسود في أمريكا الجنس الوحيد على ظهر الكرة الأرضية الذي ليست لديه معرفة عن حقيقته على الإطلاق .

في خلال جيل واحد أغتصب النخاس الأبيض المرأة الزنجية المسترقة وبدأ يخرج منها جنساً مشوهاً ممسوخاً مغسول المخ فقد لونه الحقيقي بل فقد أسماء آبائه الحقيقية . أعطى السيد الأبيض اسم أجداده لهذا الهجين الجديد الذي بدأ الرجل

الأبيض يسميه « نيجروز. »

علموا هذا الزنجي أن أفريقيا ، موطنه ، انما هي أرض يسكنها وثيون ، سود متوحشون يقفزون بين الأشجار كالقرود . وتقبل الزنوج ذلك كما تقبلوا كل تعاليم النخاس الأبيض التي قصد منها إخضاعهم لسطوة الرجل الأبيض . وبينما لكل أمة دين ورسول منها وإله تعرفه إلا أن الرجل الأبيض فرض دينه المسيحي على الزنوج . أدخلوا في روع هذا الزنجي أن يعبد إلهاً غريباً عنه ذا شعر أشقر شاحب وعيون زرق مثل شعر ولون وعيون السيد الأبيض .

علم ذلك الدين الزنوج أن اللون الأسود لعنة كما علمهم أن يكرهوا كل ما هو أسود بما في ذلك لون بشرتهم . كذلك علمهم أن كل أبيض طيب وعليهم احترامه وحبه . غسلت تلك الديانة مخ الزنوج حتى صار الواحد منهم يعتقد أنه أفضل من أخيه لمجرد أن هنالك دماً أبيض يجري في عروقه ويلوث دمه . كذلك خدعت ديانة الرجل الأبيض المسيحية الزنوج وغسلت أمخاخهم أكثر حتى يديروا الخد الأيسر وأن يبتسموا وينحنوا بالتحية ويركعوا ويتواضعوا ويغنوا ويصلوا وأن يقبلوا بالفتات الذي يتكرم به عليهم الرجل الأبيض الشرير وينتظروا جنتهم في العالم الآخر بينما يستمتع السيد الأبيض بجنته هنا في هذا العالم .

مرات كثيرة أرجع إلى الماضي لأحدد لنفسي كيف كان رد فعلي لمثل تلك الأحاديث. مع كل غرائز شوارع الجيتو التي عرفتها ، مع كل دهاء الثعلب وغرائز الذئاب التي كانت لدي ، كان المفروض أن أسخر من هذا الكلام ولكنه ألجمني . كان وكأنما كل تلك السنوات وكل تلك الحياة قابعة في ذهني ولكن بدون أثر باق . أتذكر أنني بعد ذلك بمدة ، عندما كنت أقرأ الإنجيل الذي وقعت عليه عيناي في مكتبة سجن نوفوك ، قرأت مراراً وتكراراً كيف أن الصدمة أصابت بولص حينما سمع صوت الرب حتى وقع من على حصانه في غيبوبة وأنا لا ولم ولن أشبه نفسي ببولص ولكني فقط أفهم معنى تجربته .

تعلمت منذ ذلك الوقت وساعدني تعلمي في فهم ما كان بدأ يموج بداخلي . أن نور الحق يتلقاه بسرعة المذنب الذي أسرف على نفسه ثم تاب واستغفر . بمعنى آخر أن الاعتراف بالذنب هو الطريق إلى الحق . وكما يقول الإنجيل : « لم ينج المسيح الفريسيين لأنهم تكابروا عن النجاة ». والكبائر التي ارتكبتها مهدت لي طريق التوبة وقبول الحق .

لمدة أسابيع بعد ذلك لم أكن قد بدأت في التفكير في هذه الأمور من وجهة نظري الشخصية كرجل أسود . كانت مثل الضوء الذي يعمي الأبصار .

غادر ريجنالد بوسطن عائداً إلى ديترويت . بعد ذلك كنت أجلس في غرفتي

بالساعات وأحدق في الحائط . لم أكن آكل أو حتى أشرب إلا القليل حتى كدت أن أموت جوعاً . بدأ زملاء السجن يخافون عليَّ والحراس يتوجسون ويسألون ما بي كما نصحوني بمقابلة الطبيب ولكني لم أشأ ذلك . زارني الطبيب عندما طلبوا منه ذلك ولا أدري ماذا قال لهم وربما ظن أنني أمثل عليهم .

كنت أمر بأقسى وأعظم تجربة يمر بها أي إنسان وهي قبول ما بداخلك وما حولك .

علمت بعد ذلك أن أخوتي الرجال والنساء قد جمعوا مالاً لكي تتمكن به أختي هلدا من السفر لزيارتي . حضرت هلدا وأخبرتني أن صاحب الشرف إلايْجا محمد كان عندما يحضر إلى ديترويت ينزل ضيفاً في بيت أخي ولفرد في شارع ماكاي كذلك حثتني هلدا كثيراً أن أكتب خطاباً لمستر محمد فهو يفهم معنى البقاء في سجون الرجل الأبيض لأنه شخصيًّا عاش تلك التجربة في السجن الاتحادي بمدينة ميلان في ولاية ميشجان عندما سجنوه لأنه رفض التجنيد الإجباري .

أخبرتني هلدا أيضاً أن صاحب الشرف إلايْجا محمد آت إلى ديترويت ليعيد تنظيم المعبد رقم واحد الذي أُهمل عندما كان هو في السجن وأنه يقيم بشيكاجو حيث يعمل على بناء وتنظيم المعبد رقم اثنين .

بادرتني هلدا بالسؤال «هل تحب أن تسمع قصة مجيء الرجل الأبيض إلى هذا العالم ؟ » القصة التي حكتها لي بعد ذلك هي الدرس الأساسي في تعاليم مستر محمد وهي كما علمت بعد ذلك ليست إلا نسيجاً مشوهاً مأخوذاً من القصص التي نجدها في كل الديانات الموجدة وتسمى « قصة يعقوب» يعلم إلايْجا محمد أتباعه أن القمر انشق عن الأرض أولاً وأن البشر الأوائل كانوا سود البشرة وأنهم أنشأوا مدينة مكة المكرمة وأن من بين هؤلاء السود كان هنالك أربعة وعشرون عالماً حكيماً ، وأن أحد أولئك العلماء الذي كان على خلاف مع البقية ، خلق قبيلة قوية المراس اسمها شباز ومن سلالتها أتى من يسمون اليوم بالزنوج الأمريكيين .

قبل ستة آلاف وستمائة عام ، عندما كان سبعون بالمائة من البشر سعداء وثلاثون بالمائة غير راضين بالوضع ، ولد بين الأخيرين شخص يدعى يعقوب . خُلق هذا اليعقوب لإثارة الفتن وتعكير صفو الحياة وقتل الآخرين . كان حجم رأسه كبيراً فوق العادة ، دخل المدرسة في سن الرابعة وأكمل كل معاهد وجامعات بلاده عندما صار عمرة ثمانية عشر عاماً وأصبح يعرف « بالعالم صاحب العقل الكبير» تعلم يعقوب من بين ما تعلم كيف يهجن الأجناس .

بدأ هذا العالم كبير العقل يعظ الناس في شوارع مكة ويكسب أنصاراً بدرجة

أقلقت السلطات حتى أنهم نفوه مع ٥٩٩٩٩ من أنصاره إلى جزيرة باتموس – وهي الجزيرة التي يذكر الإنجيل أن يوحنا تلقى فيها الرسالة التي نجدها في أسفار العهد الجديد . وبالرغم من أنه رجل أسود إلا أنه لم يتقبل حكم الله وقرر إرضاءً لكبريائه المجروح ، أن يخلق جنساً شيطانياً ، جنساً أبيض مبيضاً .

من دراساته كان ذلك العالم يعرف أن الجنس الأسود يحتوي على جرثومتين ، واحدة سوداء والأخرى سمراء وأن الجرثومة السمراء كانت ساكنة وبما أنها أخف وزناً فهي الأضعف بين الاثنين . لمعاكسة قوانين الكون خطر له أن يطبق ما نعرفه اليوم ببناء الجينات المنحسرة ليفصل ما بين الجرثومة السوداء والجرثومة السمراء ثم يأخذ الجرثومات السمراء ليطعمها تدريجياً فتصبح أخف وزناً وأكثر ضعفاً وبذلك تكون المحصلة النهائية هي إيجاد أناس ضعفاء يكونون بذلك أكثر عرضة لعمل الشر والإيذاء .

تلك هي الطريقة التي أتى بها الجنس الأبيض الشيطاني إلى هذا العالم .

ولأنه كان يعلم أن فصل الألوان والتحول من أسود إلى أبيض سيتطلب المرور بعدة مراحل فقد سن قانوناً لتحسين النسل في جزيرة باتموس . من بين أتباعه السود البالغ عددهم ٥٩٩٩٩ كان واحد من بين كل ثلاثة يولد وبه شيء من السمار وعندما يكبر هؤلاء لا يسمح لهم بالزواج إلا ما بين أسمر وأسمر آخر أو أسود مع أسمر . وطبقاً لقانونه إذا ولد لهؤلاء طفل أسود كان على القابلة أن تحقن إبرة في دماغه وتقدمه ليحرق جسده ثم يقال لأمه أن الجنين ولد ملاكاً ولذلك أخذته السماء ليهيئ لأمه مكاناً في الجنة . أما المرأة التي تلد طفلاً أسمر فيطلب منها أن تعتني بطفلها عناية تامة .

درَّب مستر يعقوب عدداً من المساعدين ليواصلوا رسالته وعندما توفي عن عمر وصل اثنين وخمسين ومائة عام ، ترك وراءه قوانين نفذها أتباعه . وعلى حسب رواية إلايْجا محمد لم يعش مستر يعقوب طويلاً ليرى الشيطان الذي أتى به ولكنه رآه في مخيلته فقط .

على حسب هذه الرواية تطلب التخلص من كل أسود بهذه الطريقة مرور مائتي عام ولم يعد هنالك سوى السمر . مرت مائتا عام أخرى ليخلق جنس آخر أحمر من الجنس الأسمر الذي اختفى كلية وبعد مائتي عام أخرى ظهر الجنس الأصفر في مكان الأحمر . أخيراً وبعد قرنين آخرين ظهر الجنس الأبيض . لم يبق على جزيرة باتموس إلا أناس شقر ، بشرتهم شاحبة اللون ، شياطين عيونها زرقاء باردة . كانوا عراة متوحشين عديمي الحياء ...، أجسادهم مكسوة بالشعر مثل الحيوانات ، يمشون على أربع ويسكنون الأشجار .

مرت ستمائة عام أخرى قبل أن يعود هذا الجنس الجديد إلى البر ويعيش بين

الجنس الأسود . يلقن مستر إلايْجا محمد أتباعه هذا الكلام ويخبرهم أنه بعد ستة أشهر من وجود الجنس الأبيض بين الجنس الأسود ، سار ذلك الجنس بالمكر والخديعة ليفرق بين السود وجعلهم يحاربون بعضهم البعض مما قلب الجنة التي كانت على الأرض إلى جحيم تمزقها الحروب والفتن . ولكن في النهاية اكتشف القوم السود أن مصدر مشاكلهم إنما هو الجنس الأبيض الشيطاني الذي أتى به مستر يعقوب . جمع السود كل البيض وقيدوهم بالسلاسل ووضعوا على كل منهم خرقة بيضاء صغيرة لستر عوراتهم ثم قادوا الجنس الأبيض الشرير عابرين صحراء الجزيرة إلى مجاهل وكهوف أوروبا . وجلد الغنم وحبل القياد الذي يستعمله الماسونيون اليوم ما هما إلا رموز تشير إلى كيف سترت عورة الرجل الأبيض وهو يقاد عبر تلك الصحراء ذات الرمل الحارقة .

يدعي مستر إلايْجا محمد أيضاً أن الجنس الأبيض كان متوحشاً في كهوف أوروبا وأن الحيوانات الأخرى هاجمته فكان يقفز على الأشجار خارج جحره كما أنه صنع الهروات لحماية أطفاله من الحيوانات الوحشية التي كانت تحاول غزو كهوفه . وبعد ألفي عام بُعث إليهم موسى رسولاً لإنقاذهم وتهذيبهم ولإخراجهم من الكهوف وكُتب على البشر أن يحكمهم الجنس الأبيض الشرير لستة آلاف عام . فقدان كتاب موسى هو السبب أننا لا نعرف اليوم أنهم كانوا في كهوف .

طبقا لرواية إلايْجا محمد أن أول من قبل تعاليم موسى من هؤلاء الأشرار وأول من أخرجهم موسى من الكهوف كانوا من نسميهم اليوم باليهود . ويفسر قول الإنجيل «موسى رفع الأفعى من البرية » بأن الأفعى ترمز إلى الجنس الأبيض الشرير الذي رفعه موسى من كهوف أوروبا وعلمه وثقفه . تقول الرواية أيضاً أنه بعد أن يحكم الجنس الأبيض العالم لمدة ستة آلاف عام تنتهي بزماننا هذا ، سيخرج من بين الجنس الأسود الأصلي شخص ذو حكمة ومعرفة وقوة بدون حدود . كذلك قدر لبعض سلالة الجنس الأسود أن تقاد مسترقة إلى أمريكا الشمالية لتعرف حقيقة الرجل الأبيض عن قرب في هذا الزمان .

يدعي إلايْجا محمد أن أقوى وأعظم إله ظهر على وجه البسيطة هو ماستر وور. فارد الذي حضر من الشرق للغرب وظهر في أمريكا الشمالية في نفس الوقت الذي تقول فيه النبوءة إنه سيظهر وفي نفس الوقت الذي بدأت فيه الأجناس غير البيضاء تنهض وبدأت فيه حضارة الرجل الأبيض الشرير التي حُكم عليها بالفناء ، تأكل نفسها . هذا الشخص ، ماستر وود. فارد ، كان نصف أبيض ونصف أسود حتى يتقبله السود في أمريكا ويمشون خلفه ولكي يمشي بين البيض بدون أن يكتشفوه ويستطيع بذلك أن يتفهم ويزيد معرفته بأعداء الجنس الأسود .

في عام ١٩٣١ تقمص ماسترو. د فارد شخصية بائع حرير وقابل إلايْجا محمد في مدينة ديترويت وأعطاه رسالة اللّه وأوامره المقدسة بأن ينقذ أمة الإسلام المفقودة أو ما يسمى بالزنوج التي وجدت هنا في « قفر أمريكا الشمالية».

عندما أكملت أختي هلدا قصة « تاريخ يعقوب » هذه ، لا أدري هل استطعت أن أفتح فاهي لأودعها أم لا .

عرفت بعد ذلك بزمن أن مثل هذه الروايات التي كان يلفقها إلايْجا محمد أثارت عليه غضب مسلمي الشرق وعندما ذهبت إلى مكة قلت لهم أن اللوم يقع عليهم لأنهم لم يقوموا بما فيه الكفاية حتى يعرف الناس ما هو الإسلام الحق . ترك صمتهم فراغاً لكل دجال ليدخل ويقود الناس إلى الظلمات .